أبو جعفر النحاس
ومنهجه في النحو

الدكتور/ زهير غازي زاهد

حياته :

أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المكنى بأبي جعفر والملقب بالنحاس أو الصغار. وهو من كبار علماء العربية في مصر أواخر القرن الثالث والثلث الأول من القرن الرابع للهجرة، إذ توفي سنة ٣٣٨هـ وقيل ٣٣٧هـ[١].

ولد في مصر. ولم نعرف تفصيلاً عن مراحل حياته الأولى لأن مصادر ترجمته لم تذكر ذلك إلاّ إننا نستطيع أن نتتبّع حياة النحاس من خلال رحلته العلمية التي قام بها إلى بغداد. وبغداد آنذاك مع مكة والمدينة ودمشق مطمح أنظار العلماء والدارسين. كان يقصدها الدارسون من مصر والأندلس لأخذ العلم. فقد رحل إليها شيخ النحاس محمد بن الوليد بن ولّاد المصري (ت ٢٩٨هـ) وأخذ العلم عن المبرد وغيره، ورحل إليها ابنه أحمد بن محمد بن ولاد وهو معاصر للنحاس، وأخذ العلم عن الزجاج وغيره، وكانت بينه وبين النحاس منافسة ومناظرات ذكرتها كتب اللغة والتراجم[٢]. وأكبر ظني أن محمد بن ولاد هو الذي شجّع ابنه على الرحلة إلى بغداد، وهو أيضاً قد شجع النحاس على القيام بمثل هذه الرحلة. وأستطيع أن أحدد فترة وصوله إلى بغداد إذ لم يذكر من ترجم له زمن وصوله إليها.

---

(١) أنظر نزهة الألباء ٢١٧، وفيات الأعيان ٨٢/١، أنباه الرواة على أنباه النحاة ١٠١/١، مقدمة إعراب القرآن للنحاس - بتحقيقنا - ١١/١، ٢٤.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ١٣٦/٣ - ١٥٧.

أخذ النحاس العلم على أصحاب المبرد كالزجاج، وعلى أصحاب ثعلب كنفطوية، وأخذ أيضاً عمن تلمذ للمبرد وثعلب كابن كيسان وابن شقير وعلي بن سليمان الأخفش وغيرهم. فهو إذن لم يدرك أبا العباس محمد بن يزيد المبرد[٣] المتوفي سنة ٢٨٥هـ أو ٢٨٦هـ، إنما وصل إليها في سنة وفاته أو بعد وفاته بقليل. فلم أجد له رواية عن المبرد مباشرة، وكل ما رواه عن المبرد كان بواسطة تلامذته. فما ورد في كتبه «إعراب القرآن» و«شرح القصائد التسع» و«معاني القرآن» كان عن شيوخه أصحاب المبرد.

ولما استكمل علمه في العربية بالأخذ عن شيوخ العلم ببغداد عاد إلى مصر ليستكمل علومه في الحديث والتفسير والقراءات، فأخذ عن النسائي والطحاوي وغيرهما.[٤] وعندما تهيأت لديه أسباب العلم تصدر حلقة للتدريس والاملاء في المسجد الجامع هناك، وتوافد عليه طلبة العلم من مصر والمغرب، وحمل تلامذته عنه كتاب سيبويه إلى الأندلس رواية.[٥] كذلك حملت مصنفاته عنه إلى هناك. وكان تلميذه محمد بن مفرج بن عبدالله المعافري (ت ٣٧١هـ) روي عنه كتبه إعراب القرآن ومعاني القرآن والناسخ والمنسوخ. وهو أول من أدخل هذه الكتب إلى الأندلس. فالنحاس كان سبباً في وصول علم المشرق إلى مصر والأندلس، وهو بالاضافة إلى ذلك كان كثير التأليف. فقد روى أن مصنفاته زادت على الخمسين.[٦]

شيوخه:

كان أبو جعفر النحاس واسع العلم غزير الرواية كثير التأليف كما قال فيه الزبيدي[٧]. هذه الرواية الغزيرة كانت عن شيوخه. وهم ثلاث طوائف، النحويون والمحدّثون والقراء[٨]. وسنذكر هنا النحويين ومن رووا أقوالهم.

---

(٣) ذكرت تفصيل ذلك في مقدمتي لإعراب القرآن ١٢/١، ١٣.
(٤) أنظر ذلك مفصلاً في مقدمة إعراب القرآن ١٥/١ وما بعدها.
(٥) السابق ٢٠/١، ٢١.
(٦) الوافي بالوفيات ٣٦٢/٧، إشارة التعيين ١٩، إعراب القرآن ٢٧/١.
(٧) طبقات النحويين واللغويين ٢٣١.
(٨) أنظر تفصيل ذلك في الفصل الأول من مقدمة كتاب إعراب القرآن للنحاس ١٥/١ - ١٩، =

ذكرنا أن أبا جعفر رحل إلى بغداد ليأخذ العلم على علمائها، ولم يدرك المبرد إذ توفي المبرد قبل وصوله إليها، وحين وصل النحاس إلى بغداد كانت فيها ثلاثة مناهج لدراسة النحو، وقد أخذ عن شيوخ هذه المناهج جميعاً. ومن ينظر في كتبه يحس إحساساً بسعة علمه وحفظه. أما الذين أخذ عنهم فهم:

أولاً: أصحاب المنهج البصري في النحو، وهم أصحاب أبي العباس المبرد:

١ - محمد بن الوليد بن ولاد المصري النحوي (ت ٢٩٨هـ) روي عنه، ودرس عليه في مصر.

٢ - أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١٠هـ) أخذ النحاس عنه، وقرأ عليه كتاب سيبويه كما ذكر هو في كتابه «إعراب القرآن»[٩].

ثانياً: أصحاب المنهج الكوفي في النحو، وهم أصحاب ثعلب.

١ - نفطوية أبو عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة المهلبي (ت ٣٢٣هـ) روي عنه شيئاً من التفسير[١٠]. وهو من رواة القراءات[١١].

٢ - ابن رستم أحمد بن محمد الطبري النحوي حدّث عن نصر بن يوسف وهاشم بن عبدالعزيز صاحبي الكسائي. وكان حياً سنة ٣٠٤هـ. روى النحاس عنه شيئاً في النحو[١٢]. وهو من رواة القراءات أيضاً[١٣].

ثالثاً: أصحاب المنهج الجامع الانتقائي. ومثّلهُ الذين أخذوا عن ثعلب والمبرد، فجمعوا القولين فرووهما جميعاً أو رجّحوا الأصوب.

١ - ابن كيسان أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٢٩٩هـ) روى النحاس عنه كثيراً في النحو والتفسير والمعاني.

= وانظر أيضاً الفصل الثاني منه ١/٣٥ - ٥٨. وفيه المصادر المختلفة التي اعتمدها النحاس وروى الكثير عنها وهي بصرية وكوفية وما كان جامعاً بين الرأيين.

(٩) إعراب القرآن ١/٢٨٠، نزهة الألباء ٢١٨.

(١٠) إعراب القرآن ١/٤٧.

(١١) ترجمته في غاية النهاية ١/٢٥.

(١٢) إعراب القرآن ١/٥٢١.

(١٣) غاية النهاية ١/١١٤.

٢ - أبو بكر أحمد بن شقير (ت ٣١٥هـ) روي شيئاً في النحو[١٤].

٣ - علي بن سليمان الأخفش (ت ٣١٥هـ) روي عنه كثيراً في إعراب القرآن إلا أن صفة الرواية غالبة على الأخفش، ولم يكن له باع في النحو يذكر.

* * *

منهجه في النحو

وقوف النحاس على مذاهب النحو:

بعد أن اتضح المذهب الكوفي عند الكسائي في بغداد واكتمل على يد الفراء واستوى مذهباً يدرس ويدافع عنه مؤيدوه على يد ثعلب، وقف المذهب البصري إزاءه يحاول شيوخه أن يثبتوا ملامحه ويعلوا صوته في هذه المدينة. فالمبرد وتلميذه الزجاج كانا قد رسخا هذا المذهب وتلامذتهما كانوا يدافعون عنه بل يتعصبون له في كثير من الأحيان، إلا أن جيلاً من طلبة العلم كان قد تلمذ لشيوخ المذهبين وأخذ عنهما من أوائلهم ابن كيسان وابن شقير فظهرت آثار المذهبين وآثار شيوخهما على ألسنتهم وفي مصنفاتهم، فهو جيل من الدارسين أخذ يجمع بين آراء المذهبين، هذا الجيل ذكره الدارسون وأصحاب الطبقات من القدماء لكنهم اضطربوا في ترجمة من ترجموا له منه أحياناً. فمرة يسلكونه في المذهب البصري، وأُخرى يجعلونه مع الكوفيين وثالثة يفردونه ويجعلونه ممن خلط المذهبين وحفظ القولين ممن جعله الدارسون المحدثون يمثل المدرسة البغدادية في النحو، وأُسميه أنا المنهج الجامع في النحو. فابن كيسان الذي يُعدّ من أوائل النحويين الذين مثلوا المنهج الجامع في النحو، ذكره الزجاجي في العلماء الكوفيين بالرغم من علمه أنه درس علم البصريين فجمع بين المذهبين[١٥].

والسيرافي ذكره مع طبقة أصحاب المبرد وإن كان يخلط بين المذهبين[١٦]. والزبيدي

(١٤) إعراب القرآن ٢/٣٢٣، ٣٢٤.
(١٥) الايضاح ٧٩.
(١٦) أخبار النحويين البصريين ٨٠، ٨١.

يرى أنه أكثر ميلاً إلى مذهب البصريين إلا أنه جعله في الطبقة السادسة من أصحاب ثعلب ذاكراً أخذه عن المبرد.[١٧] وكذا قال ياقوت الحموي في ميله إلى البصريين برغم خلطه المذهبين[١٨]. وذكره ابن النديم فيمن خلط المذهبين وأخذ عن الفريقين. وكذا قال فيه أبو البركات الأنباري[١٩].

أما المعاصرون من الدارسين فقد اختلفوا أيضاً في تحديد مذهبه النحوي. فالدكتور شوقي ضيف جعله من أوائل من مثلوا المدرسة البغدادية التي جمعت الرأيين، فكان مذهبها الانتخاب والانتقاء منها.[٢٠] وترجم له بركلمان مع رجال المدرسة البصرية بالرغم من أنه قال بظهور المدرسة البغدادية[٢١]. والدكتور المخزومي جعله في مقدمة الذين خلطوا المذهبين وألموا بأسلوبها إلا أن الطابع العام للدرس عنده هو الطابع البصري.[٢٢]

هذا الاضطراب في تحديد المذهب النحوي لهذا الجيل وهذا الاتجاه في الخلط بين آراء المذهبين البصري والكوفي هو الذي دفعنا لأن نذهب إلى أن نعتقد بأنَّ منهجاً جديداً ظهر لدى هذا الجيل. فهو قد لا يؤلف مدرسة كما ذهب بروكلمان والدكتور شوقي ضيف سمياها بمدرسة بغداد النحوية، إلا أنه يبقى اتجاهاً جديداً ابتعد عن التعصب لمذهب من المذهبين كما كان التعصب لدى اتباع الكوفيين أو البصريين. فالدرس هنا يقف موقفاً وسطاً في كثير من الأحيان فقد يميل إلى البصريين في رأي أو جملة آراء في النحو واللغة وقد يميل إلى الكوفيين. هذا الاتجاه ظهر له منهج لم نألفه لدى اتباع أي من المذهبين. هنا يذكر الدارس عدة آراء في المسألة الواحدة يعرض آراء البصريين فيها إلى جانب آراء الكوفيين، ثم يأخذ واحدة من ثلاث سبل في استنتاجه:

---

(١٧) طبقات النحويين واللغويين ١٧٠، ١٧١.
(١٨) معجم الأدباء ٦/٢٨٠، ٢٨١.
(١٩) الفهرست ٨٠، نزهة الألباء ١٧٨.
(٢٠) المدارس النحوية ٢٤٨.
(٢١) تاريخ الأدب العربي ٢/٢٢١.
(٢٢) الدرس النحوي في بغداد ١٣٢، ١٣٣، وأنظر أيضاً كتاب «ابن كيسان وآراؤه في النحو واللغة» للسيد علي الياسري فهو يتابع الدكتور المخزومي بذلك.

١ - إما أن يختار من بينها رأياً ويفضله.
٢ - وإما أن يساوي بين آراء أصحاب المذهبين.
٣ - وإما أن يترك القضية دون تفضيل أو مساواة.

ونحن حين نستعرض ثقافة أبي جعفر النحاس ومصادر دراسته ومصنفاته[٢٣]. نجده قد ألم بهذه المذاهب المختلفة في الدرس النحوي جميعاً عن طريق شيوخه في بغداد. وشيوخه كما رأينا كانوا من البصريين والكوفيين وممن تلمذ على المذهبين وجمع الرأيين أصحاب المذهب الجامع كما سميناه. والنحاس يعد من الجيل الثاني الذي مثل المنهج الجامع هذا الذي يقف بين المنهج المعتمد على القياس والمتشدد فيه (البصري)، وبين المنهج المعتمد على السماع المتوسع فيه (الكوفي). فمصطلحات المذهبين تتردد في مصنفاته ثم جمع آراء المذهبين ومصطلحاتها في المسألة الواحدة ثم اختيار رأي فيها وتفضيله أو المساواة بينهما أو تركها دون تفضيل أو مساواة، إذا لم يكن له رأي خاص فيها. هذا هو طابع منهجه كما سيأتي تفصيله.

* * *

النحاس ومنهج البصريين

حين يعرض النحاس لأية قضية نحوية أو لغوية يحاول أن يستقصي فيها آراء العلماء البصريين والكوفيين ذاكراً مصطلحاتهم فيها، وهو يقرن المصطلح البصري بالكوفي، لذا كانت كتبه وبخاصة إعراب القرآن مصادر حفظت لنا مادة نحوية غزيرة. ومما تردد لديه من المصطلحات البصرية[٢٤]: رفع المبتدأ بالابتداء، رفع الفعل المضارع لمضارعته الأسماء، والنصب بـ «لا» النافية للجنس لأنها مضارعة لأنَّ، وتسمية حروف الجر بالظروف، والبدل وهو عند الكوفيين الترجمة أو البيان، والفاصلة وهو عند الكوفيين العماد. ومن تتبعنا لما رواه من أقوال البصريين وآرائهم نتبين له موقفين هما:

(٢٣) أنظر تفصيل ذلك في الفصل الأول والثاني من مقدمتنا لكتاب إعراب القرآن. وانظر أيضاً موضوع آثاره في مقدمتنا لشرح أبيات سيبويه للنحاس ١١ - ١٣.
(٢٤) أنظر ذلك في إعراب القرآن ١/١١٩، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٩، ٢٥٨.

أولاً - ميله إلى البصريين:

كان لشيوخ النحاس البصريين أثر واضح فيه مما رواه من أقوالهم وآرائهم، وميله إلى الأخذ بما ذهبوا إليه في كثير من المسائل والآراء حتى أنه كان يعتمدها أساساً في ردّ أقوال الكوفيين إذا كانت غير موافقة لهم في أحيان كثيرة. ونستطيع أن نستوضح ذلك في أساسين هما: السماع والقياس.

(أ) **السماع**: وقف النحاس موقف البصريين في نقده، سماع الكوفيين أو هو ردّد قولهم في ذلك حين كان يعرض لقضية تقتضي هذا القول.

ففي المقصور والممدود في إعراب الآية ﴿.. ومن آناء الليل فَسبّحْ وأطرافَ النهار..﴾(٢٥) قال: «واحد الآناء إنْـيٌ لا يعرف البصريون غيره. وحكى الفراء في واحد الآناء إنىً مقصورة، واحد الآنية إنا ممدود. وللفراء في هذا الباب في كتاب المقصور والممدود أشياء قد جاء بها على أنها فيها مقصور وممدود مثل الإناء والإنى والوراء والورى قد أنكرت عليه ورواها الأصمعي وابن السكيت والمتقنون من أهل العربية على خلاف ما رُوي. والذي يقال في هذا أنه مأمون على ما رواه غير أن سماع الكوفيين أكثره عن غير الفصحاء»(٢٦). فهو هنا يرى أمانة الفراء في روايته إلا أنه ينقد سماعه بمقولة بصرية، وهذه المقولة لم ترد في مصنفاته إلا في مواضع نادرة.

والتزام النحاس بقياس البصريين على الأغلب الأشهر في اللغة جعله ينقد أيضاً رواية الأخفش وأبي عبيدة - وهما بصريان - ما جاء عن العرب في الجر على الجوار بقولهم «هذا جحر ضبٍ خربٍ» وعدّه الجوار غلطاً(٢٧).

(ب) **القياس**: مال النحاس إلى قياس البصريين الذي كان يجري على الأغلب الأشهر في اللغة في مناسبات كثيرة، هذا القياس الذي كان يرفض كل ما لم يتفق مع هذا الأغلب الأشهر وإن كان صادراً في فصحاء. فالنحاس كان يرد الرأي في المسألة النحوية أو اللغوية وبخاصة إذا ارتبطت بقراءة آية من القرآن

(٢٥) آية ١٣٠ - سورة طه.

(٢٦) إعراب القرآن ٢/٣٦٢.

(٢٧) السابق ١/٤٨٥.

الكـريم ما لم تتفق وهـذا القياس لأن القـرآن الكريم لا يحمـل إلّا على الأغلب الأشهر[٢٨]. ولأنه لا يحمل كتاب الله إلّا على الكثير الفصيح، ولا يجوز أن يقاس عليه ما لا يشبهه. لذا نجده خلال عمله «إعراب القرآن» يصنف القراءات والشواهد وفق هذا القياس. فقراءة العامة قراءة السبعة هي الصحيحة ثم القراءات الشاذة والنادرة ثم القراءات الخطأ والمردودة.

هذا التصنيف يخضع إلى موافقة القراءة للأقيسة النحوية. لذا نجد النحاس أحياناً ينقد أو يرد بعض القراءات السبع. هذا التشدد مألوف لدى النحويـين البصريين بعد سيبويه كالمبرد والزجاج إلا أننا لم نجده لدى سيبويه في كتابه ولا عند النحويين الكوفيين أيضاً. وسنذكر أمثلة لصور من هذا القياس والاحتجاج له:

١ - تقديم الفاعل على فعله:

رد النحاس قول ثعلب في تجويز رفع الفاعل بفعله المتأخر عنه في إعراب الآية (والعملُ الصالح يرفعه)[٢٩]. وهو على مذهب البصريين في أن الفاعل إذا تقدم على فعله رفع بالابتداء أو على إضماء فعل،[٣٠] قائلاً في رفع «العمل»: إنه رفع بالابتداء أو على إضمار فعل. فإما أن يكون مرفوعاً بمعنى ويرفعه العمل الصالح فخطأ؛ لأن الفاعل إذا كان قبل الفعل لم يرتفع بالفعل. هذا قول جميع النحويين إلا شيئاً حكاه لنا علي بن سليمان عن أحمد بن يحيى أنه أجاز: زيد قام بمعنى قام زيد، قال أبو جعفر: ويبين لك فساد هذا قول العرب: الزيدان قاما. ولو كان كما قال لقيل: الزيدان قام[٣١]. فالنحاس هنا يرى رأي البصريين ويحتج بحجتهم.

٢ - إضافة الشيء إلى نفسه:

يتفق والبصريين هنا في رفضه إضافة الشيء إلى نفسه ويتابعهم في حججهم أيضاً. ففي إعراب الآية ﴿أو آتيكم بشهابِ قبس﴾[٣٢] ردّ قول الفراء قائلاً: «زعم الفراء في ترك التنوين أنه بمنزلة ﴿ولدار الآخرة﴾[٣٣] يضاف الشيء إلى نفسه

---

(٢٨) السابق ٣/٦٢.

(٢٩) الآية ١٠ - فاطر.

(٣٠) أنظر المقتضب ٤/١٢٨، أسرار العربية ٧٩، ٨٣، ٨٤.

(٣١) إعراب القرآن ٢/٦٨٩.

(٣٢) آية ٧ - النمل.

(٣٣) آية ١٠٩ - يوسف.

إذا اختلفت أسماؤه. قال أبو جعفر: إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين؛ لأن معنى الاضافة في اللغة ضم شيء إلى شيء فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليبين به معنى الملك والنوع. فمحال أن يبين أنه مالك نفسه أو من نوعها..»(٣٤).

٣ - **الفصل بين المضاف والمضاف إليه:**

ومال مع البصريين في عدم تجويز الفصل بين المضاف والمضاف إليه. ففي إعراب الآية ﴿وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم﴾(٣٥) لم يجوز قراءة ابن عامر وهو من السبعة ﴿وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم﴾(٣٦) بنصب أولادهم وخفض شركائهم؛ لأن فيها فصلاً بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف، وهو ما لم يجوزه البصريون لمخالفته قواعدهم وقياسهم فردّوا هذه القراءة وتابعهم النحاس قائلاً: إن هذا لا يجوز في كلام ولا شعر. وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه في الشعر بالظرف لأنه لا يفصل، فأما بالأسماء غير الظرف فلحن.(٣٧) أما الكوفيون فقد جوزوا ذلك مستشهدين بهذه القراءة.(٣٨)

٤ - **تشذيذ قراءة سبعية:**

وصف قراءة حمزة (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيِّ)(٣٩) بكسر الياء وصفها بالشذوذ لأنها لم تخضع للقياس النحوي إذ قال: «قال الأخفش سعيد: ما سمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين، وقال الفراء، لعل الذي قرأ بهذا ظن أن الباء تخفض الكلمة كلها. قال أبو جعفر: فقد صار هذا بإجماع لا يجوز وإن كان الفراء قد نقض هذا وأنشد:

قال لها هل لك ياتا فيِّ   قالت له ما أنت بالمرضيِّ

---

(٣٤) أنظر إعراب القرآن ٢/٥٠٨، معاني الفراء ٢/٢٨٦، ٣/٤١، الأنصاف المسألة ٦١.

(٣٥) آية ١٣٧ - الأنعام.

(٣٦) القراءة في كتاب التيسير للداني ١٠٧.

(٣٧) إعراب القرآن ١/٥٨٢، ٥٨٣.

(٣٨) الانصاف المسألة (٦٠).

(٣٩) آية ٢٢ - ابراهيم.

ولا ينبغي أن يحمل كتاب الله جل وعز على الشذوذ.»[٤٠]

ثانياً: نقده البصريين:

على الرغم من أن آثار شيوخ النحاس من النحويين البصريين كانت واضحة في منهجه وأحكامه. فهو لم يكن متعصباً لكل أقوالهم أو أقوال من سبقهم في اللغة والنحو. وإنما كان يعترض على بعضها ويختار أقوالاً بعينها دون أخرى. فقد رد أو نقد أقوالاً لسيبويه وقطرب والأخفش والمبرد وشيخه أبي اسحاق الزجاج وغيرهم. فبالرغم من تأثره بسيبويه وملازمته إياه ونقل آرائه في كتبه فهو لم يكن يتعصب له كما كان يفعل غيره من البصريين. فقد رد بعض أقواله ونقد أخرى.

من ذلك قوله في رفع لفظ الجلالة في الآية (قل الله أعبُدُ)[٤١] قائلاً: «وسيبويه يجيز الرفع على حذف الهاء ولا نعلم أحداً من النحويين وافقه على ذلك في الاسم العلم».[٤٢]

كذا خطأه في قوله ببناء أيّ بمعنى الذي وقد حذف العائد من صلتها في الآية (ثم لَنَنْزَعنّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا)[٤٣] فذكر قول الخليل بأنها مرفوعة على الحكاية أي إنها مبتدأ وأشد خبرها ويجعلها استفهاماً ثم قال: ورأيت أبا اسحاق يختار هذا القول ويستحسنه لأنه بمعنى قول أهل التفسير[٤٤]. ثم ذكر قول سيبويه «أيهُم» مبني على الضم لأنها خالفت أخواتها في الحذف؛ لأنك لو قلت: رأيت الذي أفضل منك ومن أفضل منك، كان قبيحاً حتى تقول: من هو أفضل، والحذف في أيهم جائز قال أبو جعفر: وما علمت أن أحداً من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه في هذا، سمعت أبا اسحاق يقول: ما يبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما، ثم روى أربعة أقوال غير ما سمعه من شيخه أبي اسحاق الزجاج في هذه المسألة، اثنان منها للكسائي والفراء والثالث لابن شقير. والرابع للمبرد. وكلها قد قبله[٤٥].

---

(٤٠) إعراب القرآن ١٨٢/٢، معاني الفراء ٧٥/٢، ٧٦.

(٤١) آية ١٤ - الزمر.

(٤٢) اعراب القرآن ٨١٤/٢.

(٤٣) آية ٦٩ - مريم.

(٤٤) اعراب القرآن ٣٢٢/٢، ٣٢٣.

(٤٥) اعراب القرآن ٣٢٢/٢، ٣٢٣.

ومن ذلك رده قول قطرب في قراءة ابن عامر (يا أبتَ)[٤٦] بفتح التاء بأن أصلها يا أبتاً ثم حذف التنوين قائلاً في ذلك: وهذا الذي لا يجوز؛ لأن التنوين لا يحذف لغير علة، وأيضاً فإنما يدخل التنوين في النكرة، ولا يقال في النكرة يا أبة[٤٧]. وكان النحاس يستحسن في الفتح قولاً آخر- أظنه قوله هو- ذلك أن يكون الأصل الكسر ثم أبدل من الكسرة فتحة كما تبدل من الياء ألف فيقال في يا غلامي أقبل: يا غلاما أقبل[٤٨].

وكذا خطأه في قوله: إسوار مفرد أساور في الآية (يُحَلَّونَ فيها من أساور من ذهب)[٤٩] قائلاً: وأساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، ويقال: سُوار، وحكى قطرب إسوار. قال أبو جعفر: قطرب صاحب شذوذ قد تركه يعقوب وغيره، فلم يذكروه[٥٠].

* * *

كذا لم يجوز قول الأخفش في حذف ألف الاستفهام في الآية (وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني اسرائيل)[٥١] بأن المعنى أو تلك؟ فقال النحاس: هذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام «أم» فيجوز حذفها في الشعر ولا أعلم بين النحويين في هذا اختلافاً إلا شيئاً قاله الفراء بتجويز ذلك[٥٢].

واعترض أيضاً على قول المبرد في تجويز فتح همزة (إنّ) التي في خبرها اللام في الآية (وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام)[٥٣] قائلاً: إذا

---

(٤٦) آية ٤ - يوسف.
(٤٧) الاعراب ٢/١٢١، ١٢٢.
(٤٨) السابق ٢/١٢٢.
(٤٩) آية ٣١ - الكهف.
(٥٠) الاعراب ٢/٢٧٤.
(٥١) آية ٢٢ - الشعراء.
(٥٢) الاعراب ٢/٤٨٤، ٤٨٥، معاني الفراء ٢/٢٧٩.
(٥٣) آية ٢٠ - الفرقان.

دخلت اللام لم يكن في إنّ إلا الكسر، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضاً إلا الكسر لأنها مستأنفة(٥٤).

وكذلك ردّ بعض أقوال الزجاج أكبر شيوخه أثراً فيه. إذ لم يجوز قوله في إبدال «مَنْ آمن» من ضمير المخاطب «كم» في يقربكم - وهو قول الفراء والأخفش أيضاً - في الآية (بالتي تقربكم عندنا زلفى إلاّ مَنْ آمن)(٥٥) وقدر إعرابها نصباً على الاستثناء(٥٦).

وكذا ردّ قوله في عدم تجويزه الضم في (يا أبت)(٥٧) قائلاً: «ذلك عندي لا يمتنع كما أجاز سيبويه الفتح تشبيهاً بهاء التأنيث كما يجوز الضم تشبيهاً بها أيضاً(٥٨).

* * *

النحاس ومنهج الكوفيين:

عرفنا أن النحاس في عرضه للمسألة النحوية كان يذكر فيها مختلف آراء العلماء البصريين والكوفيين، وكان أيضاً يذكر مصطلحات الكوفيين إلى جانب مصطلحات البصريين النحوية. لذا نجد كتبه وبخاصة إعراب القرآن قد ضمت كثيراً من أقوال النحويين الكوفيين ومصطلحاتهم، منها قولهم بترافع المبتدأ والخبر(٥٩)، ورفع المبتدأ بالضمير الذي في الصفة أي الظرف في الآية (الحمد لله) على قول الكسائي، والصفة هي اللام، أو رفعه بالمحل وهي اللام أيضاً على قول الفراء(٦٠). وذكر قولهم في رفع الفعل المضارع بالزوائد(٦١)، وقولهم في نصب المضارع على الصرف(٦٢) بعد واو المعية أو الفاء. وذكر اسم ما لم يسم فاعله

(٥٤) الاعراب ٢/٤٦٢.
(٥٥) آية ٣٧ - سبأ.
(٥٦) اعراب القرآن ٢/٦٧٦، ٦٧٧، همع الهوامع ٢/١٢٧.
(٥٧) آية ٤ - يوسف.
(٥٨) اعراب القرآن ٢/١٢٠، ١٢١.
(٥٩) اعراب القرآن ١/١١٩، ٢/٥٩٩.
(٦٠) اعراب القرآن ١/١١٩، ٢/٥٩٩.
(٦١) السابق ١/١٢٣، وانظر الانصاف المسألة (٧٤).
(٦٢) الاعراب ١/١٦٩، الانصاف المسألة (٧٥).

أو خبر ما لم يسم فـاعله[٦٣]، وذكر المكني وهـو الضمير، وذكـر العماد والنسق والنعت والقطع أي الحال والترجمة والتكرير أي البدل، والتبرئة أي النفي للجنس، والبيان والتفسير أي التمييز[٦٤].

يشعر قارىء مصنفات النحاس بـإلمامـه واطلاعـه الواسـع وحفظه لأقـوال الكوفيين ونقلها، إلا أننا نتبين له موقفين منهم هما:

١ - أخذه بأقوالهم:

كثيراً ما كان النحاس يذكر أقوال العلماء في المسألة التي يستعرضها ثم يختار قولاً للكوفيين في اللغة أو النحو، ويستحسنه أو أنه يذكر أقوال الكوفيين إلى جانب أقوال البصريين دون أن يخطىء واحداً منها وهو دليل قبولها، أو أنه يذكر في المسألة رأياً كوفياً فقط.

من ذلك استحسانه قول الفراء في وزن فَعَلَ وأفعلَ في الآية (والبحر يمده)[٦٥] قائلاً: «يَمدّه وحكى يُمدّه على أنهما لغتان بمعنى واحد، وحكي التفريق بين اللغتين وأنه يقال فيما كان يزيد في الشيء: مَدّه يَمدّه. كما تقول: مد النيل الخليج. أي زاد فيه، وأمد الله الخليج بالنيل. وهذا أحسن القولين وهو مذهب الفراء»[٦٦].

كذا روى سماع الكسائي عن العرب: باركك الله وبارك فيك[٦٧]. وروى القولين في أصل الضمير «إياك»[٦٨].

وقد روى قول الكوفيين في إعراب يأتيك في الآية (حتى يأتيك اليقين)[٦٩] قائلاً: «نصب بحتى ولا يجوز رفعه لأنه مستقبل»[٧٠].

---

(٦٣) الاعراب ١/١٥٠، ٢٠٣، معاني الفراء ١/٣٠١.
(٦٤) أنظر ذلك في مقدمة اعراب القرآن ١/٧٢، ٧٣ بتحقيقنا.
(٦٥) آية ٢٧ - لقمان.
(٦٦) اعراب القرآن ٢/٦٠٦، معاني الفراء ٢/٣٢٩.
(٦٧) الاعراب ٢/٥٠٩ في اعراب الآية ٨ - النمل.
(٦٨) اعراب الآية٥ - أم القرآن.
(٦٩) آية ٩٩ - الحجر.
(٧٠) الاعراب ٢/٤٠٤، الانصاف المسألة ٨٣.

وروى قول الكسائي في رفع (نعبد)[71] بأنه مستقبل مرفوع بالزوائد التي في أوله. وقول الفراء أنه مرفوع بسلامته من الجوازم والنواصب.

وروى القولين في رفع المبتدأ والخبر في (ذلك الكتاب لا ريب فيه)[72].

وكتابه «إعراب القرآن» ضم كثيراً من المسائل التي روى فيها القولين، فلا تكاد تمر مسألة في النحو أو اللغة إلا استعرض فيها النحاس أقوال مختلف النحويين.

٢ - نقده لأقوال الكوفيين:

كان النحاس يناقش أقوال النحويين حين يستعرضها في مسألة لغوية أو نحوية. وقد ناقش أقوال البصريين والكوفيين فيقبلها حيناً ويعترض عليها أو يردها أحياناً. وبحكم ميله إلى الأخذ بأقوال البصريين وأقيستهم في الغالب وبخاصة في كتابه إعراب القرآن، فهو كثيراً ما وقف موقف الحذر في روايته لأقوال الكوفيين وأكثر من مناقشتها، ورد منها أحياناً ما كان يتعارض مع أصول البصريين، فكان موقفه في كثير من الأحيان موقف النحويين من القراءات ومنهجه منهجهم في أن اللغة الشائعة هي القياس يقبل ما وافقها ويرد ما خالفها، وبأن القرآن لا يقاس على القليل النادر. وقد مر بنا أمثلة من ذلك في موضوع «النحاس ومنهج البصريين».

النحاس والمنهج الجامع (الانتقائي):

رأينا أن أبا جعفر النحاس أقرب إلى البصريين في تفكيره وأحكامه وأقيسته. فعلى الرغم من أنه وافق الكوفيين في مسائل وعارض البصريين في مسائل أخرى إلا أن الأثر فيه وفي أقواله يظل لشيوخه من البصريين ثم أسلوب معالجته للمسائل النحوية تظهر فيه آثار المنطق وقوة العامل والعلة التي لديهم كما ذهب الدكتور المخزومي إليه[73]. نحن نحس بذلك كل الاحساس لكن منهجه الذي اتبعه في

(٧١) الاعراب ١/١٢٢، ١٢٣.

(٧٢) اعراب القرآن ١/١٢٧، ١٢٨. وانظر أيضاً مقدمة اعراب القرآن للنحاس ١/٢٢ وما بعدها ففيها تفصيل أكثر لذلك.

(٧٣) الدرس النحوي في بغداد ١٦٣.

عرضه للمسائل النحوية واللغوية بل حتى في التفسير والمعاني، هذا المنهج الذي نراه في إعرابه القرآن أو التفسير لآياته نراه يختلف اختلافاً واضحاً عن المنهج الذي يتبعه المتعصبون لأحد المذهبين ممن سبقوا عصره أو ممن عاصروه، بل نحن نرى أن منهجاً علمياً جامعاً استوى على يده، وقد عبر عنه أوضح تعبير في كتابه إعراب القرآن. هذا المنهج تتضح فيه مظاهر النضوج الثقافي الذي يتسم به القرن الرابع الهجري والذي يظهر لنا في سعة اطلاعه وكثرة حفظه واستيعابه لمختلف الآراء في المسألة الواحدة. أزعم أنه منهج جديد في الدرس النحوي أو في التأليف، وبهذا لا أتفق مع من سمى ذلك بالمدرسة البغدادية(٧٤)؛ لأنه منهج في الدرس والتأليف كما قلت، ولا أتفق أيضاً مع من أنكر هذا المذهب لأنه أنكر مدرسة بغداد لغير الكوفيين، ثم صنف النحويين بين مذهبين كوفي وبصري، وسلك النحاس مع البصريين(٧٥).

لقد سبق أن ذكرت أن اجتماع علماء المذهبين النحويين في بغداد خلال القرن الثالث وتلمذة مجموعة من طلبة العلم على علماء المذهبين وبخاصة المبرد وثعلب، أثر في نشوء هذا المنهج لدى من أخذ عليهما وعلى تلامذتهما من بعدهما. فهذا المنهج في الدرس النحوي يجمع آراء كلا المذهبين ويستعرضها في القضية الواحدة ثم يرجح بعضها ويرفض الآخر أو يجمع كل الآراء إذا كانت متقاربة دون ترجيح أو رفض.

لست بصدد التفصيل في إثبات هذا المنهج بعامة فلذلك بحث آخر إن شاء الله. إنما أريد هنا أن أقصر البحث على النحاس ومنهجه في الدرس والتأليف، والذي حاول أن يشيع هذا المنهج الجامع الانتقائي فيما صنف من كتب. وحاول أيضاً أن يجمع المذهبين المتخالفين في منهج واحد في النحو هو هذا الذي رأيت أنه منهج علمي جامع. وسأحاول إثبات ذلك بذكر سماته:

١ - من مصنفات النحاس التي ذكرتها كتب التراجم كتاب «المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين في النحو» وكتاب «الكافي في النحو»(٧٦). فالأول يدل عنوانه

---

(٧٤) أنظر رأي الدكتور شوقي ضيف في كتابه المدارس النحوية ٣٣١.

(٧٥) الدرس النحوي في بغداد ١٦٣.

(٧٦) أنظر فهرست ابن خير ٣٠٩، ٣٧٩، القفطي في أنباه الرواة ١/١٠٣. والسيوطي بغية الوعاة ١/٣٩٢. وانظر أيضاً مقدمة كتاب شرح أبيات سيبويه للنحاس ١١-١٣ - بتحقيقنا.

على ما يمثل هذا المنهج الذي نحن بصدده ولو وصل إلينا لاتخذنا منه دليلاً لذلك غير أننا من خلال كتابه «اعراب القرآن» وهو أكبر كتبه الجامعة لعلمه في النحو واللغة نستطيع أن نعرف حفظه الغزير لأقوال النحويين البصريين والكوفيين ولمصطلحاتهم والاستشهاد بها وذكرها في معالجته لمسائل النحو وقضايا اللغة.

٢ - كان النحاس حين يعرض لقضية لغوية أو نحوية يورد بعض المصطلحات والعبارات التي تدل على شمول فهو يذكر مثلاً «أنشد النحويون» أو «قال بهذا النحويون» و«أجاز النحويون» أو «ولا نعلم أحداً من النحويين» وغير ذلك[٧٧]. وهو يريد النحويين البصريين والكوفيين دون تخصيص ثم يذكر أقوالاً لعلماء من المذهبين، وبعد ذلك يخصص أحياناً إذا أخذ بقول أحدهم قائلاً: وهذا قول من يوثق به من النحويين منهم محمد بن يزيد (المبرد)[٧٨].

٣ - يعرض لمجموعة من المسائل فيصرح بأنها مشكل في النحو[٧٩] ويروي أقوال شيوخه فيها ثم يكون له في توجيهها الطرق التالية:

(أ) يرد أو يضعف رأياً كوفياً معتمداً على آخر بصري يفضله أو يرجحه.

(ب) يرد أولاً يجوز رأياً بصرياً مرجحاً أو مستحسناً قول كوفي.

(ج) يذكر الأقوال المختلفة في المسألة فيرد بعضها أو يفضل ويستحسن الآخر ثم يذكر رأيه هو فيها[٨٠].

(د) يذكر الأقوال دون تفضيل أو ترجيح لأنها عنده صائبة جميعاً كأنه يقف منها موقف المحايد[٨١].

---

(٧٧) أنظر اعراب القرآن ١٦٦/١، ٢٧٤/٢، ٣٢٣، ٤٦٢، ٥٠٣، ٥٠٦، ٨١١، ٨١٤...

(٧٨) السابق ١٢٠/١، ١٨٢، ٤٩٠/٢، ٧٥٢.

(٧٩) السابق ٣٢٢/٢. آية ٦٩ - مريم.

(٨٠) أنظر السابق ١٢٠/١ في دفاعه عن رواية الفراء لقراءة الآية (الحمدِ لِلّه) و(الحمدُ لُلّه) ١٢٢/٢ في جوازهم ضم تاء (يا أبت) آية٤ - يوسف، ٤٦٢/٢ في عدم تجويز فتح همزة (ان) إذا جاءت اللام بعدها وجعله وهماً في قول المبرد بجوازها.

(٨١) اعراب القرآن ١١٩/١، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨.

٤ - يذكر أحياناً في المسألة قولاً واحداً بصرياً فقط أو كوفياً فقط كما جاء في اعراب الآية (إن الذين يتلون كتاب الله)[٨٢] قائلاً: قال أحمد بن يحيى: خبر «إنّ» (يرجون تجارة لن تبور)[٨٣].

(٨٢) آية ٢٩ - فاطر.

(٨٣) الاعراب ٢/٦٩٢.

مصادر البحث

(١) أخبار النحويين البصريين - أبو سعيد السيرافي ط ١٩٥٥.
(٢) أسرار العربية - ابن الأنباري - تحقيق البيطار دمشق ١٩٥٧م.
(٣) الأشباه والنظائر - السيوطي - حيدر آباد ١٣٦٠م.
(٤) إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين - أبو المحاسن اليمني - مخطوطة دار الكتب المصرية رقمه ١٦١٢ تاريخ.
(٥) إعراب القرآن - أبو جعفر النحاس - تحقيق الدكتور زهير زاهد مطبعة العاني بغداد.
(٦) أنباه الرواة على أنباه النحاة - القفطي - تحقيق أبو الفضل ابراهيم - دار الكتب المصرية.
(٧) الانصاف في مسائل الخلاف - أبو البركات بن الأنباري تحقيق محيي الدين عبدالحميد ط٣ ١٩٥٥.
(٨) الايضاح في علل النحو - أبو القاسم الزجاجي - تحقيق مازن المبارك - مطبعة المدني ١٩٥٩.
(٩) بغية الوعاة - السيوطي - تحقيق أبو الفضل ابراهيم ١٩٦٤م.
(١٠) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار دار المعارف بمصر.
(١١) التيسير في القراءات السبع - أبو عمرو الداني - تصحيح برتزل ١٩٣٠م
(١٢) الدرس النحوي في بغداد - د. مهدي المخزومي - نشر وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٤م.
(١٣) شرح أبيات سيبويه - أبوجعفر النحاس - تحقيق زهير زاهد مطبعة الغري في النجف ١٩٧٤م.
(١٤) طبقات النحويين واللغويين - أبو بكر الزبيدي - تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط١ ١٩٥٤م.
(١٥) غاية النهاية في طبقات القراء - ابن الجزري - نشر برجستراسر، ط السعادة الفهرست - ابن النديم - مكتبة خياط - بيروت.
(١٦) فهرست ابن خير الاشبيلي - القاهرة ١٩٦٣م.
(١٧) أبو الحسن بن كيسان - علي مزهر الياسري - منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية ١٩٧٩م.
(١٨) المدارس النحوية - د. شوقي ضيف - دار المعارف بمصر.
(١٩) معاني القرآن - أبو زكريا الفراء - تحقيق أحمد بن يوسف والنجار.
(٢٠) معجم الأدباء - ياقوت الحموي تحقيق مرجلوت، ط٢ ١٩٣٠ بمصر.
(٢١) المقتضب - أبو العباس المبرد - تحقيق عضيمة القاهرة ١٩٦٣.
(٢٢) نزهة الألباء - أبو البركات بن الانباري - تحقيق د. ابراهيم السامرائي - بغداد ١٩٧٠.
(٢٣) الوافي بالوفيات - صلاح الدين الصفدي - اعتناء الدكتور إحسان عباس ١٩٦٩م.
(٢٤) وفيات الاعيان - ابن خلكان - تحقيق محيي الدين عبدالحميد، السعادة ١٩٤٨.